دور الهجرة الدولية في التحولات السوسيو_مجالية بإقليم الدريوش (حالة حوض بودينار)

د. عبد الكريم سومع، جامعة محمد الأول، وجدة – المغرب

ملخص: تهدف هذه المداخلة إلى دراسة أهم التحولات التي خلفتها الهجرة الدولية بحوض بودينار بالشمال الشرقي من إقليم الدريوش، وذلك من خلال تحديد دور التحويلات المالية في تطوير السكن وتغيير المشهد الريفي.

بعد توظيف المنهج التاريخي، والمقاربة الوصفية والإحصائية التي تعتمد على الاستمارة الميدانية، تبين أن الموارد المالية القادمة من الخارج لعبت دورا مهما في انتقال المسكن الريفي من الاحتماء بالمرتفعات إلى الاستقرار بالمنخفضات، وفي تحول المجتمع الريفي نحو سلوكيات استهلاكية.

الكلمات المفتاحية: الهجرة، السكن الريفي، حوض بودينار، الموارد المالية، المشهد الريفي.

The contribution of the international migration to the socio- spacial transformations in the province of Driouch (case of Boudinar Basin)

Dr. **SOUMAA Abdelkarim**, University Mohammed I, Oujda **-Morocco**

Abstract: This study aims at studying the most important changes caused by international migration in the basin of Boudinar in the northeast of Driouch province, by determining the role of financial transformations in developing rural residence and changing the rural landscape.

After employing the historical approach, and the descriptive and statistical approach, that relies on the field questionnaire, it was found that the financial resources coming from abroad played an important role in the transformation of rural residence from taking refuge in highlands to settling in lowlands, and in the transformation of rural society towards consumption behaviors.

Key words: Migration, rural home, Boudinar Basin, monetary resources, rural landscape.

مقدمة:

تعتبر دراسة التحولات السوسيو_مجالية من الإشكاليات الحديثة التي أضحى يهتم بها الفكر الجغرافي، لكونها تساهم بشكل كبير في تحديد خصائص وسبل التدخل لتدارك الخلل بين الإنسان ومحيطه.

يتميز حوض بودينار بقدم الاستقرار البشري وبتنوع واختلاف موارده الطبيعية، وقد تطورت أشكال استغلال الإنسان البودياري لمجاله حسب اختلاف أنماط تدبير الموارد الطبيعية لهذا الحوض.

من أجل دراسة جوانب الإشكالية المطروحة، ولتحديد العناصر المتحكمة في تطورات الوسط، وتدبير المجال الترابي للحوض، تم اعتماد التشخيص العلمي الدقيق لمراحل تطور الهجرة الدولية للساكنة المحلية وتحديد دور الموارد المالية في تغيير وظيفة السكن الريفي، من خلال توظيف النهج التاريخي لتحديد تطور الأحداث، والمقاربة الإحصائية التي تعتمد الاستمارة الميدانية.

1. الإطار المنهجي للدراسة

1.1 مشكلة الدراسة وأهميتها

ساهمت الهجرة في إحداث تحولات كبيرة بالمجتمع الريفي، من خلال التقليص من حدة الأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعرفها المنطقة، نتيجة توالي سنوات الجفاف وتراجع مردودية القطاع الفلاحي للمنطقة.

عرف حوض بودينار، مع بداية القرن العشرين، تحولات عميقة شملت أشكال الاستغلال والاستقرار معا، حيث ساهمت الهجرة الدولية في ظهور حركية سكانية جديدة أدت إلى تغيير المناظر الريفية وتطوير دور السكن بالمجالات الريفية، وشجعت على التوجه نحو الاستقرار بالمراكز القروية والحضرية.

تسعى هذه الدراسة إلى التطرق لأهم مراحل تطور أشكال الهجرة وأثرها على تحول أنماط السكن الريفي بإقليم الدريوش عموما، وحوض بودينار على وجه الخصوص؛ من خلال الإجابة على الإشكالية التالية:

كيف ساهمت الموارد المالية الخارجية في تحول مهمة السكن الريفي وفي تطور الدينامية السوسيو_مجالية بالحوض؟

على ضوء هذه الإشكالية يمكن طرح مجموعة من التساؤلات، والتي تعتبر مفاتيح أساسية لتشخيص الواقع وخصائص هذه التحولات:

-ما هي العوامل المتحكمة في تطور أشكال الهجرة نحو خارج الحوض بإقليم الدريوش؟

-ما هي أهم التحولات التي خلفتها الموارد المالية الخارجية بالسكن والأنشطة المزاولة بمجال الدراسة؟

2.1 أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز علاقة الهجرة الدولية بالتحولات السوسيو_مجالية التي يشهدها الحوض، ومدى تأثير الموارد المالية للهجرة على دينامية السكن الريفي، وذلك من خلال:

- تحديد مراحل تطور الهجرة الدولية بالحوض؛
- أثر الموارد المالية الخارجية على تحول دور السكن الريفي في دينامية الوسط؛
- إبراز خصائص السكن العصري ودوره في التحولات العامة التي عرفها مجال الدراسة.

3.1 منهجية الدراسة:

تطلب انجاز هذه الدراسة الاعتماد على المنهج التاريخي والوصفي التحليلي، وذلك عبر الاطلاع على مجموعة من الكتب التاريخية والأبحاث الأكاديمية، أهمها كتب (أوجست موليراس، 1895)، و(أحمد الطاهري، 2013)، و(ميمون أزيزا، 2021)، ثم دراسة مضمون الأطروحات الخاصة بالجغرافية البشرية مثل: (Raymond BOSSARD,1978)، و(Mohamed BERRIANE,1996)، و(الحسين بوظيلب، 2005)، واللذين تناولوا دور الهجرة في الدينامية السوسيو_مجالية بالناظور الكبير، بينما عالج كل من (Abdelkader

GUITOUNI, 1995) و(علال الزروالي، 2001)، و(Evelyne GAUCHE, 2002)، و(كمال دربوشي، 2018)، أشكال تدخل الإنسان وتنوع الأنشطة الاقتصادية في التحولات السوسيو_مجالية، وبروز مراكز حضرية جديدة بالريف الشرقي.

من أجل دراسة هذه التحولات تم الاعتماد على الخرائط الطبوغرافية، مع فرز وتحليل مضمون استمارة العمل الميداني والمعطيات الإحصائية الإدارية باستخدام برمجية Sphinx V5 وExcel.

4.1 الموقع الجغرافي لمجال الدراسة:

ينتمي مجال الدراسة للحوض المائي لواد أمقران، والذي ينبع من جبال بني توزين وبني سعيد، ليصب بالبحر الأبيض المتوسط، غرب إقليم الدريوش، شمال غرب جهة الشرق، ويضم هذا الحوض إداريا الجماعات الترابية لدائرة الريف وتتكون من تمسمان وبني مرغنين وبودينار وأولاد أمغار واتروكوت واجرماوس وتاليليت وجزء من جماعتي افرني واتسافت (الشكل .1.).

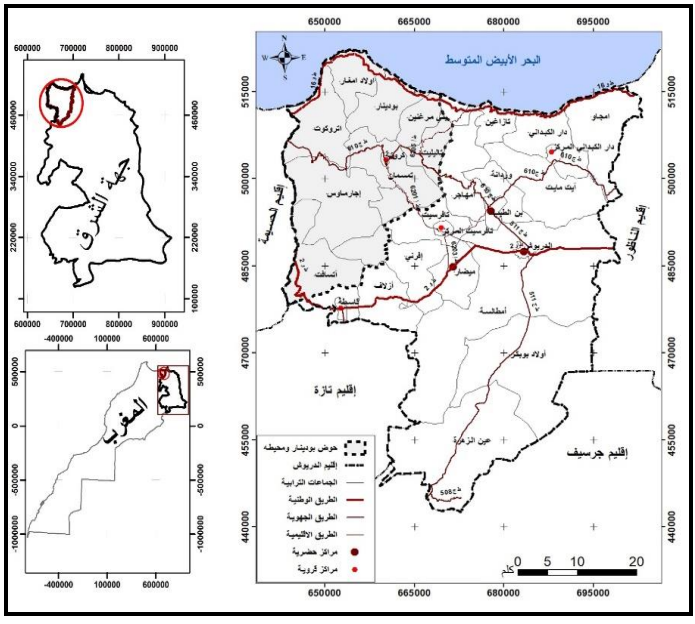

المصدر: عمالة الدريوش (عمل شخصي)

الشكل 1: توطين حوض بودينار بإقليم الدريوش

2عرض نتائج الدراسة

1.2 جذور الهجرة الدولية لساكنة الحوض وأهم خصائصها

تعتبر علاقة الإنسان بالمجال علاقة قديمة، حيث كانت في العقود الأولى تتميز بالتكامل بين متطلبات الإنسان وما توفره الأرض من موارد، وذلك لضمان مبدأ الارتباط بين الإنسان ووسطه. مع بداية القرن العشرين ظهرت بوادر الهجرة الموسمية لساكنة الريف الشرقي نحو الجزائر، مما مهد لبداية تسجيل تحولات عميقة، شملت أشكال الاستغلال والاستقرار معا، بحيث ساهمت الحركية السكانية في تغيير المناظر الريفية وتطوير شكل السكن القروي.

1.1.2 هجرة ساكنة حوض بودينار نحو الجزائر

مع بداية النصف الثاني من القرن 19م، شكلت الهجرة الموسمية نحو الجزائر –من أجل العمل في الضيعات الفرنسية– إحدى البدائل التي كانت تلجأ إليها ساكنة الريف الشرقي، خلال سنوات الجفاف؛ فقد أتاح الاحتلال الفرنسي للجزائر فرصا مهمة للعمل؛ بحيث ساهمت المشاريع الرأسمالية التي ارتبطت بتهيئة البنيات التحتية الزراعية والمنجمية في توفير إمكانية العمل الموسمي أمام الريفيين. لقد تميزت هذه الهجرة بالطابع الموسمي، حيث كانت تتم خلال موسمي الحرث والحصاد؛ فارتبطت قوافل الهجرة في البداية بقبائل شمال الدريوش (بني توزين وتمسمان وبني سعيد وبني اوليشك) حيث بلغت نسبة الهجرة 20% من مجموع الأفراد المتراوحة أعمارهم ما بين 15 و50 سنة؛ نتيجة تأثر نظامها الاقتصادي القائم على الزراعة الموسمية بتوالي سنوات الجفاف، وكذا تراجع نسبة التساقطات التي كانت تؤدي إلى بروز خلل بين الموارد الطبيعية المحدودة وبين الفائض البشري؛ وهو ما أشار إليه Bossard قائلا: " *في نهاية القرن 19م كانت توجد بأرزيو بالجزائر قبيلة بطيوية التي كان بها 1200 ساكن من أصل ريفي، بالضبط من قبيلة آيت سعيد المجاورة لقبيلة تمسمان، والتي يحتمل أنها هاجرت خلال القرن الثامن عشر*"

(Bossard, 1979, p52)؛ وفي سنة 1895م عزز موليبراس فكرة Bossard بقوله: "*يمكن أن تراهم كل سنة بعمالتنا خلال موسم الحصاد أو جني الكروم، وكانت وهران تستقبل أكثر من 20000 مهاجر" (أوجست موليبراس، 1895، ص 71).*

بعد سنة 1912م، ومع بداية الاستغلال الاستعماري، استحوذ الأجانب على أجود الأراضي الريفية، مما أدى إلى امتداد نسبة استقرار الريفيين بالجزائر لمدة تفوق نصف السنة، هروبا من مخلفات الاستغلال الاستعماري، حيث سجلت أغلب الدراسات الإسبانية انحدار نسبة كبيرة من المهاجرين نحو الجزائر من قبائل تمسمان وآيت سعيد وآيت توزين وتافرسيت، إذ بلغت نسبة الهجرة 20% من مجموع الأفراد المتراوحة أعمارهم بين 15 و50 سنة؛ بينما النسبة لا تتجاوز 3% بقبائل امطالسة وآيت اوليشك نتيجة توفر فرص العمل بمناجم آيت بويفرور القريبة منهم.

لقد اتسعت الهجرة نحو الجزائر خلال النصف الأول من القرن العشرين، بعد إنشاء خط بحري بين مليلية ووهران (الصورة .1)، حيث بلغ عدد الريفيين الذين هاجروا عبر ميناء مليلية سنة 1908م، 70000 مهاجرا (بوظيلب، 2005، ص 75).

المصدر: منقول من https://fr.todocoleccion.net/militaria-photographie

الصورة 1: ركوب المهاجرين الريفيين من ميناء مليلية نحو الجزائر

حاولت السلطات الاستعمارية منع العمال المغاربة من التوجه نحو الجزائر بحثا عن العمل؛ لكن مع ذلك عمل مجموعة منهم على الهروب من المنطقة والوصول إلى حدود الحماية الفرنسية،

عبر واد ملوية، وطلبوا اللجوء إليها هروبا من الوضعية المزرية التي يعيشونها، فقد " *تمكن قرابة ماءتين من الأهالي، المنحدرين من تمسمان وآيت توزين وآيت وليشك، من العبور إلى المنطقة الفرنسية في مارس 1937، وتقدموا إلى مركز وجدة مصرحين بأنهم فروا من بلدهم للبحث عن العمل وتفادي إقحامهم في* الفيالق الإسبانية" (أزيزا، 2021، ص 270).

ساهمت الحرب العالمية الثانية وتوالي سنوات الجفاف والجوع وانهيار المستوى المعيشي للساكنة، مقابل تشجيع حكومة فرانكو لمواطنيها على الهجرة نحو المنطقة (خاصة المناطق التي استفادت من إصلاحات الاستيطان الفلاحي في لعزيب، ميضار، وبودينار) ومزاحمة الأهالي عبر نزع ممتلكاتهم تحت الحماية الإسبانية، في ارتفاع نسبة المهاجرين إلى خارج الإقليم، بحثا عن سبل ملائمة للحياة (ويبرز الجدول رقم .1. عدد المهاجرين من بعض القبائل سنة 1941م).

الجدول1: نسبة الذكور من بعض قبائل المنطقة المهاجرين نحو الجزائر سنة 1941م

القبيلة	عدد الذكور المهاجرين	النسبة من مجموع السكان الذكور %
تمسمان	1567	20.8
بني سعيد	1544	27.5
بني توزين	1193	14.5
تافرسيت	301	18.4

المصدر: A.E.Z.P 1942 نقلا عن ميمون أزيزا، (2021)، ص 321 بتصرف

أدت التحولات العامة التي خلفتها السياسة الاستعمارية الإسبانية بالريف الشرقي إلى حدوث اضطرابات في العلاقة القائمة بين الموارد الطبيعية والساكنة التي عرفت انفجارا ديموغرافيا هائلا، مما شكل ضغطا على الموارد الطبيعية بالمنطقة، وإحداث تغيير في الحركة السكانية بالمناطق الجبلية، مما دفعهم إلى التفكير في الاستقرار بالمنخفضات والسفوح غير الآهلة، أو بالمراكز الإدارية كبودينار والعسكرية ككرونة التي أنشأتها الدولة الاستعمارية، والعمل على البحث عن موارد مالية قادمة من الخارج.

2.1.2 الهجرة نحو أوروبا وآثارها على الدينامية المجالية بحوض بودينار

بعد استقلال المغرب ومع بداية الستينات، شهد حوض بودينار تزايدا في عدد السكان، وبالتالي ارتفاعا ملموسا في نسبة الكثافة السكانية، والتي حققت أرقاما قياسية تفوق 130ن/كلم² بالجماعات الجبلية (بحيث سجلت جماعة تمسمان 246ن/كلم^2 في إحصاء 1960).

بالإضافة إلى هذا، أدى توقف الهجرة نحو الجزائر وعجز البنيات الاقتصادية المحلية على تلبية حاجيات الساكنة، إلى عدم قدرة المغرب على امتصاص فائض اليد العاملة، وبالتالي عملت الدولة على تشجيع الهجرة نحو أوروبا؛ عبر عقد عدة اتفاقيات مع الدول الأوروبية، فاعتبر بذلك المغرب الشرقي من أهم الأقطاب الرئيسية الممولة للهجرة المغربية نحو أوروبا.

لقد مرت الهجرة الدولية نحو أوربا منذ انطلاقها بفترات متباينة، حيث انتقلت من مرحلة الهجرة الفردية، إلى مرحلة الهجرة العائلية والتي كانت شبه دائمة بالدول الأوروبية بخلاف الهجرة الموسمية التي كانت نحو الجزائر (الشكل.2.)، ومع بداية تسعينات القرن العشرين بدأت ظاهرة هجرة القوارب الميتة (الهجرة السرية) نحو إسبانيا، مما ساهم في ظهور دينامية اجتماعية جديدة، أدت إلى تغيير مواقع ومواضع الاستقرار السكاني، والتأثير على وظيفة السكن.

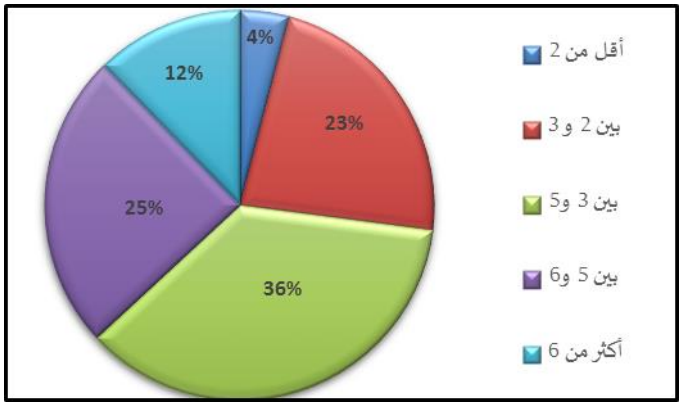

المصدر: نتائج الاستمارة الميدانية الخاصة بأرباب الأسر

الشكل2: عدد الأفراد المهاجرة إلى الخارج من كل أسرة بحوض بودينار

ساهمت الهجرة في بداية بروز التحولات المجالية، نتيجة التغيرات التي خلفتها الموارد المالية للمهاجر على المجتمع المحلي الراغب في التحضر، وذلك بانتقال أفراد الأسرة نحو الاستقرار بالمنخفضات والقرب من الطرق الرئيسية والمراكز التجارية التي ظهرت بحوض بودينار خاصة بدوار كرونة وبودينار (الصورة .2.).

المصدر: العمل الميداني 2020 – 2021

الصورة 2: جانب من أثر الموارد المالية على نوع السكن بمراكز حوض بودينار

لقد عملت الهجرة على تحسين مداخيل الأسرة، فقد تميز مجال الدراسة بقدم الاستقرار، بحيث أن غالبية أسر الحوض (أكثر من 80% من المستجوبين) تقطن في مساكن يتراوح عمرها بين 20 سنة و50 سنة، أغلبها عبارة عن مساكن عصرية بطوابق متعددة، يتم استغلال الأرضي منها في التجارة والخدمات، خاصة بالمراكز المحددة من الحوض (الشكل .3.).

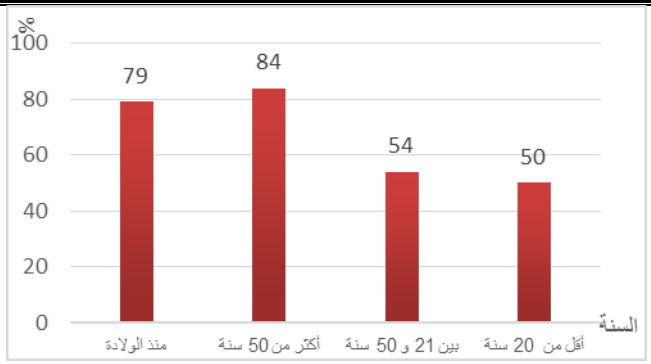

المصدر: نتائج الاستمارة الميدانية الخاصة بأرباب الأسر

الشكل 3: توزيع الأسر المستجوبة حسب أقدمية مساكنها ب (%)

لعبت الجبال والسفوح الدور الأساسي في احتضان النسبة المهمة من الساكنة، وتحكمت الظروف التاريخية في هذه الدينامية الديموغرافية؛ فكان لمخلفات الاستعمار الإسباني الدور الكبير في إرغام الساكنة على الاحتماء بالجبال وترك السهول لممارسة أنشطتها الفلاحية.

لقد صرح أكثر من 80% من المهاجرين بإرسالهم لمساعدات دورية لفائدة أسرهم بالحوض، مما ساهم في تحسين مداخيل أفراد الأسرة والتشجيع على إعادة بناء السكن، وخلق أنشطة اقتصادية أو إنشاء وحدات خدماتية (مقهى، فران، حمام...)، وتشكل هذه الموارد الخارجية أهم المصادر لتمويل هذه الأنشطة التي تميزت بتنوعها الكبير، حيث تصدرت التجارة هذه الأنشطة بالدواوير وبالمناطق القريبة من المراكز القروية والأسواق الأسبوعية.

2.2 دور الهجرة في تطور وظيفة السكن

ساهمت دراسة تطور بنية السكن في استيعاب أهم الانعكاسات التي خلفتها الموارد المالية للمهاجرين، وإدراك التحول الذي شهدته وظيفة السكن الريفي؛ فقد أدى استثمار رساميل الهجرة بحوض بودينار إلى إحداث تغيير في قطاع البناء، وتطوير وظيفة السكن الريفي ليستجيب لهذه الأنشطة الجديدة، حيث ظهر نمط جديد من البناء داخل المراكز الحضرية من الإقليم.

1.2.2 خصائص السكن الريفي

ويقصد بالسكن الريفي ذلك النمط المميز لتوزيع المنازل الفلاحية داخل مجال يمارس به الإنسان أنشطة فلاحية تحيط به حقول زراعية؛ فيشكل بذلك هذا السكن مكونا أساسيا من مكونات المجال الريفي، إذ لا تخلو المجالات الريفية عموما من حيز تشغله البنايات السكنية الخاصة بالأسرة واصطبلات للماشية (الصورة .3.)، وعليه فلسكن الريفي مجموعة من الخصائص الاجتماعية والاقتصادية؛ بحيث تطورت وظائفه حسب صيرورة التحولات التي يعرفها المجتمع من نمط تقليدي إلى نمط منفتح على التأثيرات الخارجية.

المصدر: منقول من https://fr.todocoleccion.net/militaria-photographie

الصورة 3: جانب من شكل السكن الريفي التقليدي بمرتفعات بني توزين

ومن أجل بناء سكن ريفي، يؤخذ بعين الاعتبار مجموعة من الشروط: أهمها اختيار "الموقع الاستراتيجي" (يكون بالعالية لضمان الأمن كما توضحه الصورة .3.، وغالبا ما يكون ضمن الحدود الجغرافية لنفس القرية)، ثم الوضع الاجتماعي والاقتصادي وطبيعة ملكية الأرض، كما يؤخذ بالحسبان حجم الأسرة وعدد أفرادها...، كل هذا يتحكم في جودة ونوع السكن المراد تجهيزه وخصائص مرافقه ونوع ملحقاته.

يتميز عموما السكن التقليدي بالريف ببنائه المستطيل على مساحة تتراوح بين 150 و300م، ويعرف بتنظيم داخلي دقيق لمكوناته المتمثلة أساسا في «أَخَّامْ نْبَارَا" (بيت برا) وهي غرفة عند مدخل المسكن ومخصصة للضيوف، ثم "رَمَرَاحْ" أو الفناء، وهو الجزء المكشوف من صحن السكن تزاول فيه النساء أنشطتهن ويستغل في فصل الصيف للجلسات الليلية بين أفراد العائلة. يفصل "رَمْرَاحْ" عن غرف النوم "أَسْقِيفْ" الذي يستغل في الأيام المطيرة لتحضير الخبز والجلسات العائلية، ثم الحوش بمدخل الحظيرة، الذي يستغل صيفا كمربض للماشية، وفي فصل الشتاء توضع الماشية في الزريبة أو الحظيرة والتي تستغل أيضا كمستودع للآلات الفلاحية (الشكل .4.).

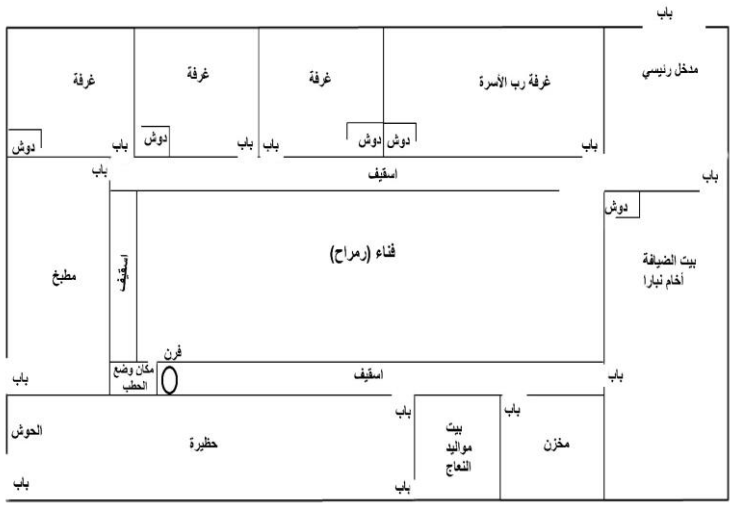

المصدر: الرواية الشفهية

الشكل 4: الشكل الهندسي للسكن التقليدي

شكلت القبيلة، قبل وخلال مرحلة فرض الحماية الإسبانية، إطارا سياسيا واجتماعيا تصنف مكوناتها بشكل تراتبي، يبدأ من العائلة التي تعتبر قاعدة التنظيم ثم تليها تَرْفِيڤْتْ (خط النسب)، وفي الأخير أفخاذ القبيلة. ويشكل الدوار أو أَدْشَارْ الوحدة المجالية الأصغر في هذا التنظيم، بحيث يعتبر مكان إقامة للأسر التي تنتمي إلى أنساب مشتركة تسمى "تَافِيڤْينْ"، وكان كل دوار

أو أَدْشَارْ يتكون من عدة ثَافِيقْينْ، *كما يعتبر الدوار كذلك وحدة إدارية* وسياسية واقتصادية (Maurer, 1968)، وقد كانت القبائل المحلية حريصة على تدبير مجالها السكني من خلال التركيز على مؤسسات الجماعة التي تشرف على مراقبة الانتفاع من الغابات والمراعي وتنظيم السقي، والفصل في النزاعات الطارئة، والدفاع عن القبيلة في مواجهة الأخطار التي كانت تأتي من الخارج.

ارتبط السكن وتوطينه، خلال هذه المرحلة، بخصائص الوسط وبمميزات الإنتاج الفلاحي، مع التركيز على عنصر الاحتماء وتكامل عناصر الرستاق؛ بحيث كان يتموضع بسافلة المجال البوري ويشرف على المجال المسقي، ومعظمه عبارة عن سكن متجمع نتيجة ترابط النسب والروابط العائلية بين أفراد القبيلة.

2.2.2 تطور وظيفة السكن بمجال الدراسة

عملت الرساميل القادمة من الهجرة الدولية على تغيير نمط السكن، خاصة بعد تفكك الروابط العائلية وتراجع الأسر ذات الطابع الأبوي، مما ساهم في ظهور السكن الفردي، وتلاشي السكن التقليدي الذي يضم أكثر من أسرة، فاستثمرت بذلك هذه الموارد المالية في قطاع البناء، وظهر السكن العصري الذي استعمل أدوات البناء العصرية، من الإسمنت وقضبان الحديد والرمل والحصى...، والتي عوضت الأدوات المحلية (الصورة .4.).

المصدر: العمل الميداني + الرواية الشفهية 2020 – 2021

الصورة 4: الانتقال إلى المنازل الفردية العصرية وبالنمط العمودي

لقد ظهر نمط معماري جديد بالعالم القروي، بحيث عمل أفراد الأسرة المهاجرة إلى فرنسا في الصورة .4 بجماعة بني مرغنين إلى الانتقال من السكن التقليدي (1) إلى بناء منازل فردية عصرية (5.4.3.2) وهي كلها لأبناء رب الأسرة (1). تميزت الدور بنوع جديد من البناء إما بطابق واحد أو أكثر، وبتعدد حجراته وهندسته العصرية، كما يتوفر على جل المرافق الضرورية، وبتوحيد تصميم السكن بعد انتقال البناء من امتداد أفقي إلى عمودي لإبراز الامكانية المادية للفرد وضمان الانتماء للدوار.

عرفت هذه المرحلة بداية انتقال الساكنة نحو الاستقرار قرب الطرق والأسواق الأسبوعية، حيث سجلت مجموعة من الجماعات بالحوض، خاصة تلك التي تتوفر على مراكز محددة (تمسمان وبودينار واتروكوت) تزايدا في عدد سكانها والمنحدرين أغلبهم من الدواوير المجاورة لها، وذلك بغية الاستفادة من مجموع المرافق والخدمات التي تقدمها هذه المراكز؛ وقد بينت نتائج العمل الميداني أن 64% من المستجوبين يفضلون بيع أراضيهم بالقرى بغية الانتقال إلى المراكز والتجمعات الحضرية القريبة بدل البقاء بالدوار (الشكل .5).

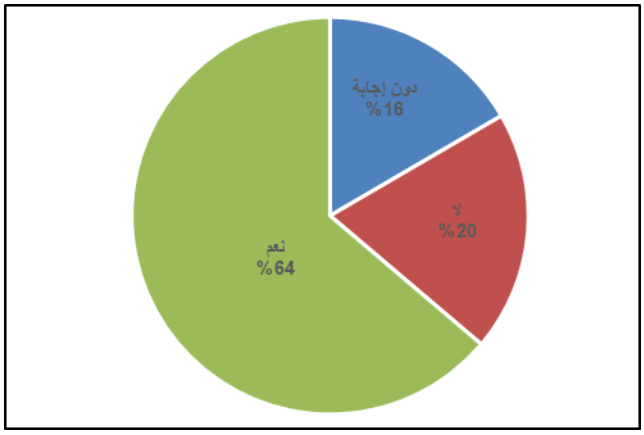

المصدر: نتائج العمل الميداني في يوليوز 2021

الشكل 5: رغبة الفلاح في بيع أرضه والهجرة نحو المراكز القروية والحضرية

اتضح بعد دراسة تطور ساكنة دواوير مجال الدراسة إلى حدود إحصاء 1994م، وكذا نتائج الشكل .5. والملاحظة الميدانية، أن مجموعة من الدواوير قد انمحت من خريطة الحوض نتيجة تحول سكانها نحو الاستقرار بدواوير أخرى كما هو مبين في الصورتين5 و6.

المصدر: العمل الميداني 2020 – 2021

الصورة 5: سكن مهجور بمرتفعات بني سعيد الصورة 6: دوار مهجور بجماعة اجارماوس

أصبح السكن ينزلق من المرتفعات الجبلية إلى الأحواض وقرب الطرق، حيث رحلت ساكنة مرتفعات جبال بني سعيد وبني اوليشك نحو مدينة بن الطيب (نموذج الصورة .5.)، كما ساهم تغلغل السلوكيات العصرية في تحديث أدوات البناء والتجهيزات مما أدى إلى تدمير معالم الإرث الحضاري للسكن الريفي (مثلما حدث في الصورة .6.) بدواوير تاغزوث واحباب بن علي وايت شوعة بن علي التي رحلت ساكنتهم نحو ميضار وكرونة، من أجل الاستفادة من الخدمات السوسيو_إدارية.

3.2 دور عائدات الهجرة الدولية في تطور التجمعات السكنية

لقد بينت نتائج الاستمارة الميدانية أن جل المهاجرين بحوض بودينار يخصصون ثلثي العائدات المالية إما للبناء أو لشراء مسكن بالدوار أو بالمراكز المحددة والمدن القريبة، إذ بينت الأبحاث التي أنجزت حول المهاجرين من الناظور بأوروبا أن أكثر من 72% منهم يحولون مدخراتهم المالية لقطاع السكن والعقار، عبر شراء قطع أرضية بالمراكز وبناء منازل جديدة أو عصرنة المنازل القديمة داخل الدوار. هذا الاهتمام بالعقار والبناء ترتب عنه دينامية مجالية جديدة أدت إلى اتساع وتزايد وتيرة تطور المراكز المحددة بالجماعات الترابية (نموذج مركز كرونة).

نموذج تطور المركز القروي المحدد كرونة -جماعة تمسمان-

تشكل المراكز المحددة للجماعات الترابية ذات الطابع القروي المرحلة الانتقالية للهجرة من الدواوير نحو المدن، مما نتج عنه ارتفاعا مهما لنسبة استقطاب ساكنة الدواوير المجاورة لها، وقد ساهمت مجموعة من العوامل في استقطاب هذه الساكنة أهمها الإرث التاريخي وظهور هذه المراكز خلال المرحلة الاستعمارية كمواقع عسكرية على المحاور الطرقية الرئيسية (مركز كرونة على الطريق الجهوية 610)؛ مما سهل عملية التواصل والانتقال نحو المدن المجاورة، وكذا احتضانها لمجموعة من المرافق والخدمات مثل المستوصف والسوق الأسبوعي ومقر الجماعة والمؤسسات التعليمية.

لقد استفاد دوار كرونة بجماعة تمسمان من السياسة التي نهجتها الدولة بعد الاستقلال؛ حيث تحول سنة 1982 إلى مركز محدد قروي، فاحتضن مجموعة من التجهيزات الضرورية (قيادة، مقر الجماعة، مستوصف، إعدادية وثانوية، وكالة بريدية، وكالة بنكية...)، ومن قربه من سوق خميس تمسمان، وإصلاح الطريق الجهوية 610 الرابط بين الناظور والحسيمة عبر تيزي عزا.

لقد تحول مركز كرونة إلى قطب ذات وزن اقتصادي ملموس بالحوض، بحيث أصبح يتوفر على سوق يومي وعلى مجموعة من المحلات التجارية الضخمة، ومراكز لبيع معدات البناء والتجهيزات المنزلية...، فمارس بذلك قوة الاستقطاب على ساكنة دواوير المرتفعات الجبلية بالجماعة، وكذلك على ساكنة الجماعات الترابية المجاورة.

سجل المركز ارتفاعا مهما في معدل الكثافة السكانية والذي بلغ 761ن/كلم^2، مقابل 115ن/كلم^2 كمعدل للكثافة بالجماعة، حسب نتائج إحصاء 2014. لقد ارتبط ارتفاع نسبة الكثافة السكانية أساسا بارتفاع قيمة التحويلات المالية للمهاجرين، خاصة خلال العقود الأخيرة، وأدت بذلك هذه الموارد المالية إلى تشجيع ساكنة الدواوير المجاورة للمركز ودواوير الجماعات الترابية لبني مرغنين اجارماوس وتاليليت إلى التحول نحو الاستقرار بالمركز القروي المحدد كرونة، وتطوير البناء وخلق أنشطة سوسيو_مجالية جديدة بهذا المركز (الصورة .7.).

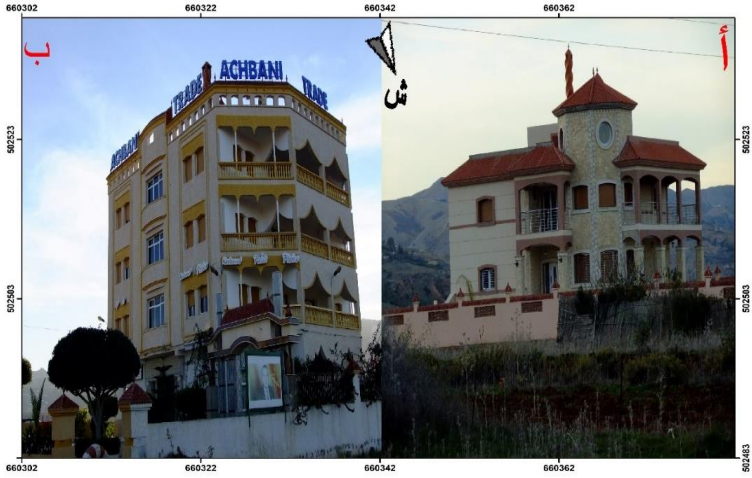

المصدر: العمل الميداني 2006

الصورة 7: سكن وفندق بمركز كرونة جماعة تمسمان

تعبر الصورة .7. عن دور الموارد الخارجية في عصرنة البناء والسكن داخل المركز القروي المحدد لكرونة بجماعة تمسمان، فصاحب المسكن بالصورة "أ" من الجالية المغربية المقيمة بهولندا، أصله من دوار أجدير، عمل على صرف تحويلاته المالية في بناء سكن بطابقين بمقدار مالي قدر بأكثر من مليون درهم، ويظل هذا السكن مغلقا طيلة السنة، ما عدا العطلة الصيفية. أما الصورة "ب" فصاحب المبنى مقيم بألمانيا، أصله من جماعة اجارماوس وقد انتقل إلى مركز كرونة في التسعينات وعمل على استغلال موارده المالية من أجل بناء هذا الفندق ومرافقه الترفيهية، كالمقهى والمسبح ومطعم صغير، وغير بعيد من الفندق أنشأ معصرة لزيت الزيتون ومحطة للمحروقات، وهو ما يوضح أيضا التحول الذي عرفه المجال بإدخال مثل هذه المرافق لأول مرة إلى مركز جماعة ترابية قروية.

3 مناقشة النتائج

بينت نتائج العمل الميداني والبحث التاريخي أن الموارد المالية القادمة من الخارج قد ساهمت في عصرنة المورفولوجية الخارجية للمنازل، وعدد الطوابق لكل منزل (أقلها طابق واحد لكل منزل)، وذلك ناتج عن تأثر واحتكاك المهاجر بالثقافة الغربية، والرغبة في التحضر والتطلع إلى حياة

أفضل داخل المحيط القروي. بالمقابل ساهمت هذه الموارد في انتشار البناء العشوائي، وبناء السكن بمواضع غير آهلة للتعمير، وخلف عشوائية النسيج الحضري لهذه المراكز، خاصة مع غياب تصاميم التهيئة، مما يهدد مستقبل المجالات الفلاحية المجاورة لها.

خلصت الدراسة إلى الاستنتاجات التالية:

-إن للهجرة الدولية الدور الكبير في تغيير المشهد الريفي لحوض بودينار؛ بحيث ساهمت العائدات المالية في الارتقاء السوسيو_اقتصادي لأسر وعائلات المهاجرين، وأدت إلى ارتفاع المستوى الاستهلاكي للفرد؛

-تحول دور السكن بعد التخلي عن وظائفه التقليدية، وظهور سلوكيات حضرية داخل المجالات الريفية (تجهيزات عصرية في المعمار والتجهيزات والسلوكيات المدنية...)، وارتفاع نسبة النزوح الريفي نحو المراكز المحددة؛

-عمل الدولة على توفير مجموعة من المرافق والتجهيزات السوسيو_إدارية بالمراكز المحددة، مما نتج عنه الرفع من مستوى جاذبية هذه المراكز، وتحول السكان القرويين نحو الاستقرار بها، وبروز مجتمع استهلاكي للمنتجات الحضرية.

خلاصة عامة

شهد حوض بودينار، مثل باقي المجال المغربي، مجموعة من التحولات السوسيو_مجالية منذ الفترة الاستعمارية إلى اليوم؛ فقد ساهمت الهجرة الدولية في تغيير المشهد الريفي من خلال تحسين الوضعية الاجتماعية والمعيشية للأسر، ويتجلى هذا التغيير في تحول بعض الدواوير إلى مراكز محددة، مثل كرونة، وانتقال مهمة السكن، من الارتباط بخصائص الوسط واعتباره رمزا للانتماء والاحتماء بالمرتفعات، إلى سكن عصري ذا وظيفة الاستقرار والمبيت والتباهي؛ خاصة وأن التحويلات المالية قد عملت على الرفع من القدرة الشرائية وتحسين السلوك الاستهلاكي للعائلة المهاجرة ولأفراد عائلتهم بالحوض، وسهلت عملية الاستثمار في العقار وعصرنة البناء مما أثر على شكل السكن ووظيفته، بعد الانتقال إلى الاستقرار بالمراكز المحددة والمدن القريبة.

قائمة المراجع:

1.الإحصاء العام للسكان والسكان، للسنوات من 1960 إلى 2014، المندوبية السامية للتخطيط، وجدة، المغرب.

2.الزروالي، علال. (2001). "التحولات الريفية والتمدن في الريف الشرقي". أطروحة الدولة في الجغرافيا. كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، المغرب.

3.أزيزا، ميمون. (2021). *الريف زمن الحماية الإسبانية 1912-1956 الاستعمار الهامشي*. منشورات ملتقى الطرق، إقامة دبيبغ، الدار البيضاء. المغرب.

4.الطاهري، أحمد. (2013). *بلاد الريف وحاضرة نكور من فجر التاريخ إلى أنوار الإسلام*. مطبعة بوبليديسا، دار النشر ركوليكتوريس أوربانوس-إشبيلية. إسبانيا.

5.بوظيلب، الحسين. (2005). "أسس الهجرة الدولية والدينامية السوسيو مجالية بالريف الشرقي حالة حوض تمسمان وهوامشه". أطروحة لنيل الدكتوراه في الجغرافيا. كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، جامعة محمد بن عبد الله، فاس. المغرب.

6.دربوشي، كمال. (2018). "دور المراكز الحضرية الصغرى والمتوسطة في التنمية الترابية بالريف الشرقي". أطروحة لنيل دكتوراه في الجغرافيا. كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، المغرب.

7.سومع، عبد الكريم. (2022). "المجال الترابي لإقليم الدريوش بين التحولات المجالية وتدبير الموارد الطبيعية". أطروحة لنيل الدكتوراه في الجغرافيا. كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، المغرب.

8.موليراس، أوجست. (1985). *المغرب المجهول*. ترجمة وتقديم الخطابي، عز الدين. 2007. منشورات تفراز ن اء ريف، جار النجاح، الجديدة. المغرب.

9. BERRIANE, Mohamed et HOPFINGER, Hans et KAGERMEIER, Andreas et POPP, Herbert. (1996). "*Remigration Nador I: analyse régionale de la province de Nador*". Université passau. passavia-Univ-verl. Germany.

10. BOSSARD Raymond (1978). "Mouvements migratoires dans le Rif oriental: le travail en Europe. Aspect contemporain majeur des migrations dans la province de Nador". Thèse de doctorat. Géographie. Université Paul Valéry-Montpellier III. France.
11. GAUCHE, evelyne. (2002). "Les compagnes des Beni Said (Rif Oriental, Maroc). L'exemple de la crise d'une compagne et de son avant-pays". Thèse De doctorat de Géographie. UFR des Sciences Sociales et Administratives. Université Paris X .Nanterre. France.
12. GUITOUNI, Abdelkader. (1995). "Le Nord-Est Marocain Réalités et potentialités d'une région excentrée". Thèse de Doctorat d'Etat. Département de Géographie. Université François Rabelais. Tours. France.
13. MAURER Gérard (1968). "Les paysans du haut Rif central. Revue de géographie du Maroc". n 14. p 3-70.
14. Biblioteca Virtual de Defensa d'Espana: https://fr.todocoleccion.net/militaria-photographie